

فهرس هذا الجزء

(ج ٥، ٦ س ٢٩ ذوا القعدة والحجة سنة ١٤١٤هـ)
(آيار / حزيران (مايو / يونية) سنة ١٩٩٤م)

تصدر عن: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام

-١-

إن عهد الرسالة ثم عهد الخلفاء الـراشدين لهما أهم وأعظم العهود التاريخية في الإسلام، وذالك لمـا ظهر فيهمـا من أحداث سياسيـة وحضاريـة عظيمة، أدت في نهاية المطاف إلى توحيد أجزاء عديـدة من القارتين الأسيوية والإفريقية تحت كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) إن هذه الفترة الـزمنية المبكرة في تاريخ الإسلام تعد

ومثل المعاش : المعيش . المقاس : المقيس. والمباع : المبيع...

٦ـ ص ٢٠٥ (اتجه البحث نحو علاقته المضطردة بالعناصر الجمالية)

لا أدري لما أحب المحـدثون هـذه الـ (المضطـردة) وكأنها اكتشـاف، وقد تبلغ حد الحذلقة على أنها الصواب، وما هي ـ في أحسن أحوالها لديهم ـ كذالك.

أن الفعل الثلاثي طرد، والطاء أصلية فيه، فإذا صغناه على (افتعل) بقيت (التاء) طاء : إطَّرد ـ بتشديد الطاء، فهو مطـرد وهي مطّردة. على خلاف ضرب ـ مثلاً ـ التي تصاغ على افتعل : أضتـرَب : وتقلب التاء طـاء فتصير، اضطـرب. وفي «اللسان» : (أمرٌ مطّـرد : مستقيم على جهتـه)و (اطّردَ الشيءُ تبع بعضـه بعضاً وجـرى... واطرد الأمر استقام ...) ـ وهو المطلوب في الاستعمال الحديث.

هذا وفي الـذهن استعمال قـديم لاضطرد.. والقاعـدة ـ على أي حـال ـ أولى أن تتبع والأولى بـالاضطراد أن يختص بطـراد الخيل وفي «اللسان» : (الاضطـراد : هو الطراد، وهو افتعال مـن طراد الخيل، وهو عدوها وتتابعها، فقلبـت تاء الافتعال طاء ثم قلبت الطاء الأصلية ضادًا)!

٧ ـ ص ١٠٧ (الأسلوب ـ كما يقول ابن منظور في لسان العرب...).

ابن منظور لا يقول، وإنمـا ينقل من معجمات محدودة معدودة، فـاللسان يقول، وليس ابن منظور يقول.

د. علي جواد الطاهر

القاعدة الأساسية والمدة التي نزلت فيها رسالة القرآن من رب العباد إلى نبيه محمد ﷺ لكــي يخرج الناسَ من عبادة الأوثان وغيرها إلى عبادة رب السموات والأرض ومـا بينهما، كمـا أنها الفتـرة التي دخل فيهـا الناس في دين الله أفـواجاً، ثم تصـدوا لطواغيت الكفر والضلالة داخل شبه الجزيـرة العربية وخارجها فساروا في سبيل الله يجاهـدون، ويبذلون كل غال ورخيص مـن أجل الفوز بالشهادة أو إعـلاء كلمة الله وهزيمة أهل الكفر والطغيان.

ولم تمـر ثلاثة عقـود من تاريخ الإسـلام إلاَّ وجحافل المسلمين قـد وصلت إلى كل من بـلاد الشام ومصـر وأجزاء مـن بلاد المغـرب والعراق وبـلاد فارس، وبهـذا تحقق وعد الله لنبيه بأن رسالة الإسلام عامة شاملة لجميع البشرية(١).

وهذا البحث يهتم بالعلاقات السياسية والتجـارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجـاز في العقـود الأولى من تـاريـخ الإسـلام، لهـذا فإن الكـلام عن الأحـداث السياسية والحضارية التي حصلت في عهـد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وليس لها علاقة بمـوضوع البحث سوف تكون بعيدة عن محيط دراستنا، ومـا سيتم مناقشتـه هو وضع العـلاقات السيـاسية والتجـارية التي تـربط بين أرض (أثيوبيا)أو ما يسمى الحبشة(٢)، في أغلب المصادر العربية وبلاد النوبة مع منطقة الحجاز لنـرى مستوى تلك العلاقـات، ونوعهـا ومدى نشاطهـا بين تلك الأطراف، وبالإجابة على هذه النقاط نستطيع أن نخـرج بصورةواضحة عن تلك العلاقات بين تلك الأجزاء الأفريقية ومنطقة الحجاز الأسيوية.

أ ـ العلاقات السياسية بين بلاد الحبشة والحجاز :

لـم تكن صلة بلاد الأحباش بمنطقة الحجاز ولا بشبه الجزيرة العربية وليدة ظهور الـدين الإسـلامي، وإنما الصـلات بين الطـرفين تعـود إلى ما قبـل الإسلام بقـرون عـديدة، فكـان هناك صـلات تجاريـة بين القرشيين والأحبـاش، بل كانت هنـالك هجرات عربيـة خرجت من شبه الجزيـرة العربية واستقرت في بـلاد الحبشة وأجزاء أخرى من بلاد شرق أفريقيا(٣).

وفيمـا يبـدو أن العـلاقـة بين منطقـة الحجـاز والحبشـة لـم تكن مقتصـرة على

الهجرات الذاهبة من بلاد الجزيرة، أو على الصلات التجارية، وإنما يحتمل وجود علاقات سياسية بين الحجازيين والأحباش أيضاً، إذ يروي ابن حبيب رواية تؤكد مثل ذالك، فيذكر أنه حدث في الجاهلية صراع شديد بين بني هاشم وبني أمية، وبعد احتدام النزاع بين الطرفين قرروا الاحتكام إلى أحد ملوك ذالك الزمان، فكان اختيارهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة ليحتكموا على يد مليكها فيما تنازعوا(٤) فيه، ويستنتج من هذه الرواية، أن العلاقات بين ملوك الحبشة وأعيان أهل الحجاز من القرشيين كانت على مستوى جيد، وإلا لما كانت الحبشة أرض وساطة وصلح بين الأطراف المتنازعة في الحجاز، ويلجأ إليها عند الحاجة وساعات المحن.

فلما ظهر الإسلام واشتد إيذاء قريش للنبي ﷺ وأصحابه، ورأى الرسول ما يصيب أصحابه من البلاء، وأن عمه أبا طالب لا يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه من اضطهاد، أذن لهم في الهجرة إلى بلاد الحبشة قائلاً: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فكانت أول هجرة في الإسلام سنة ٦١٥م (السنة الخامسة بعد الدعوة)(٥).

ويذكر النُوَيْرِي في تعليل اختيار الرسول للحبشة دون غيرها من البلاد الكتابية أو الوثنية وفي تبرير وصفه لملك الحبشة أنه ملك لا يظلم عنده أحد رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن نجاشي الحبشة (أصحمة) كان أبوه ملكاً على الحبشة وهو فتى صغير، فنازعه عمه الملك واستولى عليه من أخيه، وتشرد أصحمة حتى بِيع إلى رجل عربي من بني ضَمْرَةَ، فمكث ببلاد العرب مدة تعرّف فيها على عاداتهم ولهجاتهم ثم عاد إلى الحبشة واستعاد ملك أبيه ومن هنا كان سر التعاطف بينه وبين العرب بوجه عام(٦).

ومهما يكن من أمر فقد أثبت اختيار الرسول للحبشة أنه كان اختياراً سليماً لأن معظم المدن والقبائل العربية كانت حتى ذالك الوقت تقف موقف المكابر المعاند من الدعوة الإسلامية بالإضافة إلى احتمال مجاملتها لقريش، كبرى القبائل في شبه الجزيرة العربية، كما أن إيفادهم إلى اليمن أو الحيرة أو الشام محفوف بالخطر لأنها كانت أسواقاً يتردد عليها العرب بين حين وآخر، أما التفكير في إرسالهم إلى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب المعتنقين للديانات اليهودية

والمسيحية فقد اسْتُبْعِدَ لشدة عدائهم للإسلام، والخوف من منافسته لعقائدهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ذلك أنهم قالوا ليس علينا في الأُميين سبيل﴾[٧].

ويذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن الحبشة كانت أقرب البلاد المسيحية التي يحكمها ملك مسيحي إلى الجزيرة العربية، والسفر إليها أهون أمراً وأسلم عاقبة، إذ لا يزيد عن كونه عبوراً للبحر الأحمر، وهو أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالا وجنوباً من خلال القبائل العربية المعادية[٨].

وليس من شك في أن أعداء الدعوة لم يخطر ببالهم أبداً أن يُضَحِّي السابقون إلى الإسلام بوطنهم ومهد حياتهم وأن يذهبوا إلى هذ البلد البعيد عن موطنهم الأول.

ويروي ابن هشام في «السيرة» [٩] عن ابن إسحاق أن عدداً كبيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، ذهبوا في سفينتين تجاريتين لقاء نصف دينار عن كل واحد منهم، ورست السفينتان عند مكان على شاطئ اسمه (مصدر) جنوبي ميناء عدوليس (ADULIS) الميناء الأريتري القديم، ومن هناك اتجهوا نحو أكسوم ((الحبشة) وكان مجموع المهاجرين من المسلمين عدا أبناءهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا بها بعد ذلك، ثلاثة وثمانين رجلاً وسيدة، ويذكر ابن هشام عدداً كبيراً من الأسر العربية المهاجرة في مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عُمَيْس وعثمان بن عفان وابن أبي العاصي وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهيلة بنت سهيل بن عمرو، ومن بني أسد الزبير بن العوام بن خويلد، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير بن هاشم، ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف، ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي بن المغيرة، ومن بني جُمَحٍ عثمان بن مظعون، ومن قبيلة عدي عامر بن ربيعة، ومن بني هذيل عبد الله بن مسعود، ومن بني بهراء المقداد بن الأسود[١٠].

وعندما وصل أولئك المهاجرون الأوائل إلى بلاد النجاشي في الحبشة وجدوا فعلا ما كان قد وعدهم به الرسول ﷺ من أن ملكها عادل لا يظلم عنده أحد، وأنه

كان نعم المجير، ويتضح ذلك من قول أم سلمة عندما وصفت معاملة النجاشي للمهاجرين فقالت : لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمِنَا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لانُؤْذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه(١١).

وقد أورد ابن هشام بصدد الهجرة إلى أرض الحبشة بعض الشعر الذي يصف فيه ماكان يقاسيه المهاجرون من اضطهاد وبلاء بين القرشيين، ثم ما آل أمرهم إليه من إعزاز وتكريم عندما أتوا إلى أرض الحبشة، فأحسن جوارهم النجاشي وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً، ويتناول بعضه عتاب قريش وذمها على كفرها وموقفها من عداء الرسول ﷺ وصحابته، ومن ذالك الشعر ما قال أحد المهاجرين، عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي(١٢) :

كل امريً من عباد الله مضطهدٍ ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلادَ الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ي في الممات وعيب غير مأمون

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً، يذكر نَفْي قريش إياهم من بلادهم ويعاتب بعض قومه في ذالك:

أبتْ كَبِدي لا أكذبَنْكَ قتالهم عليَّ وتأباه عليَّ أنامِلي
وكيف قتالي معشراً أدبُوكم على الحق أن لا تأشبوه بباطل
نفتهم عباد الجن من حر أرضهم فأضحوا على أمر شديد البلابل

وقال أيضاً :

وتلك قريش تجحد الله حقه كما جحدت عاد ومدين والْحِجْرُ

ومما لا شك فيه أنه كان لذهاب المهاجرين إلى الحبشة أثر كبير في نشر الإسلام، وترغيب الناس فيه، فقد شاع الدين الجديد بين العرب، وعرفوا أن أولئك المهاجرين الأوائل خرجوا من موطنهم الأصلي، مكة إلى الحبشة فراراً بدين (الله) جاء به النبي محمد ﷺ ، وبذالك قُدِّر للإسلام أن يصل إلى آذان من لم يكن سمع به من قبل، ثم إنه كان لخروج هذه الجماعة المضطهدة أثر كبير في ترقيق قلوب

أهليهم، إذْ رأوا أن فريقاً منهم اضطر لهجرة وطنه لأنه أُوذي في دينه.

ولما رأت قريش أن المسلمين استقروا في الحبشة أرسلت في أثرهم وفداً يحمل مجموعة من الهدايا إلى النجاشي، ويطلبونه باسم سادة قريش أن يعيد أولئك المهاجرين إلى مكة، وكان ذالك الوفد مكوناً من رجلين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وعند وصولهما إلى أرض الحبشة اتصلا ببطارقة النجاشي، ووزعا عليهم الهدايا التي جاءا بها من الحجاز، ثم طلبا منهم مساعدتهما عند الملك ليردَّ لهم أولئك المهاجرين الذين أسلموا وجاءوا إلى بلاده، فوعدوهما بذلك، ثم ذَهَبا لمقابلة الملك، وعند مقابلته، أعطياه الهدايا التي كانا قد أحضراها معهما من مكة ثم كلماه فقالا له : أيها الملك أنه قد ضَوَى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه[١٣]. وعند سماع النجاشي كل ما قالا قام البعض من بطارقة النجاشي وأوصوا الملك بإرجاع أولئك المهاجرين المسلمين، فغضب لتصرف بطارقته، وكذلك لكل ما سمع من وفد قريش ثم قال: (لاها الله إذَنْ لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني علي مَنْ سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذالك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ماجاوروني[١٤]).

وبعد إصرار النجاشي على السماع من المسلمين جِيْءَ بهم، وكان متكلمهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فبعد أن سأله الملك عن الدين الذي اعتنقوا وفارقوا ديانة قومهم قال له جعفر : (أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيْءُ الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذالك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول

الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وَحرَّمْنَا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا جوارك ألاَّ نُظْلَمَ عندك أيها الملك(١٥)».

وبعد سماع النجاشي تلك المقولة الصادقة من جعفر أدرك أن أولئك المهاجرين أصحاب الحق والكفة الراجحة، فلم يكن يصغي لعمرو بن العاص وصاحبه، ولم يُلبِّ طلبهما الذي جاءا من أجله، وسمح لجعفر بن أبي طالب ووأصحابه أن يعيشوا في الحبشة تحت حمايته وفي ظل حكمه، وبهذا ثبت أن تَوَقُّعَ الرسول ﷺ بأنه ملك لا يظلم عنده أحد كان توقُّعًا صادقاً، وبعد نظر ثاقب.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والسير العديد من الوثائق السياسية التي تم تبادلها بين الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة، فيذكر عبد الشافي غنيم عبد القادر رسالة أرسلها الرسول ﷺ مع عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ وفيها يدعو النجاشي إلى الإسلام ونصها «من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة إني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم البتول الطيبة الحصينة، حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لاشريك له، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بَلّغْت ونصحت فاقبلوا نصحي وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين والسلام على من اتبع الهدي»(١٦).

ويشير عبد الشافي غنيم إلى أن هذه الرسالة قد أرسلت في الفترة التي هاجر فيها المسلمون الأوائل من مكة إلى الحبشة، والسبب في إرسالها مع عمرو دون سواه عائد إلى صلة أصحمة بقبيلة بني ضَمْرَة التي يذكر أنه عاش بين أفرادها فترة من الزمن لهذا سوف يكون لها شأن أقوى لدى نجاشي الحبشة إذا جاء بها رجل من تلك القبيلة(١٧). ومثل هذه الرواية قد لايُعتمد عليها لعدة أسباب هي : أن إرسال عمرو بن أمية الضمري من قبل الرسول ﷺ ورد في مصادر عديدة لكنه ليس في الفترة المكية، فهناك روايات تقول أنه أُرْسِلَ بعد موقعة بدر الكبرى، وكان سبب

إرساله أن الرسول ﷺ وجهه بخطاب إلى النجاشي بعد أن بعثت قريش بعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لأجل استرداد المهاجرين، لكن المصادر التي أشارت إلى هذه الرسالة لم تورد نص الخطاب[١٨]، في حين أن هناك رواية أخرى تذكر أن التاريخ الذي أرسل فيه عمرو بن أمية الضمري كان بعد صلح الحديبية أي في السنة السادسة من الهجرة، ومضمون الرسالة التي كان يحملها الضمري كانت قريبة في مضمونها وألفاظها من الرسالة التي تقدم إيرادها[١٩]. إن القول بأن عمرو بن أمية أُرسِل لأجل القصة التي أوردها حول بقاء أصحمة في ديار بني ضمرة ليس سبباً قوياً لأن يختار الرسول ﷺ بلاد الحبشة موطناً لأصحابه، وإنما قرب بلاد الحبشة من منطقة الحجاز، ثم وجود ملك بها اتصف بالعدالة والإنصاف، أيضاً توقعات وبعد نظر الرسول الثاقب تكون كل هذه الأسباب مجتمعة في اختيار بلاد النجاشي دون ماسواها.

وقد أورد محمد حميد الله ثلاث رسائل من الرسول ﷺ، وهي متشابهة في محتواها وغالباً في ألفاظها، ومدلول تلك الرسائل دعوة الرسول ﷺ للنجاشي ليدخل في الدين الإسلامي، ومن مضمون تلك الرسائل يبدو أنها أُرْسِلت في الفترة المدنية وبعد السنة السابعة تقريباً، لأن صياغة أسلوبها من قبل الرسول ﷺ لا يختلف عن صياغة الرسائل التي كان قد أرسلها إلى ملوك وأباطرة الأرض، وذلك بعد أن عقد مع قريش ما عرف في التاريخ بصلح الحديبية، لكن من يقف وقفة المدقق لألفاظ تلك الرسائل يجد محمد حميد الله يَقْسمها إلى ثلاث رسائل، علماً أنه ليس هناك اختلاف في معناها، وإن توفر بعض الاختلاف اللفظي فهذا حسب اعتقادي لا يعني أن الرسول ﷺ أرسل ثلاث رسائل متتالية وإنما هي تقريباً رسالة واحدة، وبالتالي أدخل عليها المؤلفون والنساخ التبديل والتغيير في اللفظ حتى يراها القارئ لأول وهلة ثلاث رسائل مختلفة، ثم إننا لوحاولنا أن نُسَلِّمَ بأنها ثلاث رسائل، فقد لانجد إلا رسالة واحدة من النجاشي يرد فيها على رسالة الرسول ﷺ ويرحب فيها بدعوته إلى الإسلام، ثم تبع ذالك أن أعلن إسلامه قائلا إني (أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه، بل وأسلمت على يديه لله رب العالمين[٢٠]).

ولعل إسلام النجاشي هنا يكون قد نتج عن طريق تأثير المهاجرين الأوائل في

بلاده حيث أنه ليس ببعيد أن يكون قد انتشر الإسلام بين الأحباش عن طريقهم، ثم إنه ليس ببعيد أيضا أن الرسول ﷺ كان يسعى إلى الاتصال بالمسلمين في الحبشة، فيشجعهم على الثبات على دينهم، والظهور بالمظهر الحسن الموافق للعقيدة الإسلامية، وذالك ليكون لهم التأثير في المجتمع الحبشي وبالتالي يدينون بالإسلام كما فعل النجاشي عند ما جاءته الدعوة من رسول الله.

ونلاحظ أن محمد حميد الله يستطرد في ذكر الرسائل التي تم تبادلها بين الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة بعد إسلامه فيورد كتابين تم إرسالهما من النجاشي، وفيهما يظهر سمات توطيد العلاقات السياسية بين ملك الحبشة والرسول ﷺ حيث ذكر أحدهما (أما بعد : فإني قد زوجتك امرأة من قومك وعلى دينك وهي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان(٢١). وأهديتك هدية جامعة قميصاً وسروالاً وعطافاً وخفين(٢٢)). وفي الرسالة الثانية يقول (أما بعد : فقد أرسلت إليك يا رسول الله من كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكة إلى بلادي، وها أنا أرسلت إليك ابني أريحا في ستين رجلاً من أهل الحبشة و إن شئت آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق(٢٣)).

وهاتان الرسالتان الأخيرتان من النجاشي إلى رسول الله ﷺ توضحان لنا توطيد العلاقة بين الطرفين، حتى أن النجاشي يقوم بتزويج الرسول ﷺ ودفع الصداق عنه بل ويرسل العديد من الأحباش المسلمين ليقدموا ولاءهم وخدمتهم للإسلام وإعلاء كلمة الدين، كذلك يبادر الرسول ﷺ ويبادله المشاعر الطيبة التي تعكس وجه العلاقة الحسنة، وقد تأثر الرسول ﷺ إثر سماعه بوفاة النجاشي فيترحم عليه ثم يأمر أصحابه بالترحم عليه أيضاً، والصلاة عليه صلاة الغائب، ومثل هذا لا يحدث من رسول الله ﷺ إلا ويكون هناك علاقة طيبة مع ذالك المسلم الحبشي(٢٤).

ومع أن العلاقات بين الرسول ﷺ والنجاشي كانت طيبة وحسنة، إلا أن ذالك لم يمنع من وقوع بعض اعتداءات الأحباش وخصوصاً القراصنة(٢٥) الذين كانوا يستوطنون بعض جزر البحر الأحمر، حيث أشارت بعض المصادر إلى أن العديد من القراصنة الأحباش كانوا قد أغاروا على سواحل ميناء (جدة) وذالك في شهر ربيع الأول سنة تسع وعند سماع الرسول ﷺ بتلك الغارة أرسل سرية يقودها علقمة

ابن مُجَزّر المدلجي لمواجهة أعمال القرصنة واعتداءات الأحباش، وعند وصول تلك السرية، التي تتكون من ثلاث مئة رجل، إلى سواحل (جدة) تراجع القراصنة الأحباش منهزمين إلى ديارهم(٢٦).

ومع أن المصادر العربية لم تذكر صراحة موقف الأحباش من المسلمين رغم الصلات الطيبة والعلائق الوشيجة التي تربط الرسول ﷺ بملك الحبشة. إلا أن ملك الحبشة نفسه أعلن إسلامه(٢٧)، بل وأرسل من قبله وفداً يذهب إلى المدينة لمقابلة الرسول ﷺ وللاستقرار في أرض الحجاز، وربما كان لتمادي ملك الحبشة في استمرار علاقاته الطيبة بالمسلمين عاملاً مهما من عوامل تحرش بعض الأحباش الذين لم يرضهم ما يقوم به ملكهم من توادّ وتعاطف تجاه المسلمين، لذلك بادروا بأعمال القرصنة ومهاجمة سواحل الحجاز، إلى جانب أنه كان هناك ربما دافع آخر قد يكون لعب دوراً في مهاجمة سواحل الحجاز، ألا وهو حب القراصنة لمهنتهم وممارسة الاعتداء، وبث الرعب في قلوب أفراد المجتمعات الهادئة المطمئنة، بل والعيش على مهنة السلب والنهب والإغارة على أهالي السواحل.

ولم تكن إغارات قراصنة الأحباش تتوقف عندما قاموا به في سنة تسع، وإنما تكررت في عهد الخلفاء الراشدين وبصفة خاصة على ميناء (جدة) ففي سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م هاجمت غارة حبشية موانيء الحجاز فتصدّى لها الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ ـ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) بإرسال سرية مكونة من أربع سفن لترد تلك الغارة وتطردها من مهاجمة سكان الحجاز(٢٨).

لم تكن الصلات الحسنة بين أهالي الحبشة والخلفاء الراشدين في الحجاز قد انقطعت بوفاة الرسول ﷺ وإنما الهجرات ازدادت نشاطاً في العقود الثلاثة الأولى بعد موت رسول الله ﷺ، وذالك لما حدث في الساحة الإسلامية، وخصوصاً منطقة الحجاز، من الحروب والفتن كحروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (١١ـ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م) وكالفتنة والحروب الأهلية التي حدثت في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ـ٢٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م)، وتلك الهجرات من بلاد الحجاز وكذلك أجزاء عديدة داخل وخارج شبه الجزيرة العربية كانت قد فتحت طريقاً لانتشار الإسلام في بلاد الحبشة وغيرها من بلاد أفريقيا بل وساعدت أيضاً على انتشار الثقافة والفكر الإسلامي في تلك البلاد(٢٩).

وبالموازنة بين عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين نرى أن صلات الخلفاء الراشدين بملوك الأحباش قد أهملتها المصادر تماماً، وربما نتج هذا التجاهل من جانب المؤلفين الأوائل، عن عدم وجود صلات ملموسة بين الجانبين كتلك الصلة القوية التي كان عليها الحال أيام الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة، وقد يكون هذا الافتراض صحيحاً خاصة إذا أدركنا الظروف القاسية التي مرت بها الدولة الإسلامية خلال عصر الخلفاء الراشدين، إضافة إلى أن الفتوحات الإسلامية والتوسع الكبير شغل المسلمين في عصر الخلافة الراشدة، والذي كان بعيداً عن أرض الأحباش ومركزاً في بلاد فارس والشام ومصر التي عن طريقها امتد الإسلام إلى بلاد النوبة المجاورة لأرض الحبشة، وبلاد النوبة سوف تكون محور حديثنا في موضع آخر من هذا البحث ,

(للبحث صلة) **د. غيثان بن علي بن جريس**

الحواشي :

(١) ومما يؤكد على عالمية رسالة الإسلام ما نجده عبر التاريخ إلى يومنا هذا بأن الإسلام هو دين الفطرة، بل هو دين العدل والتسامح حيث نجد أقواماً بل شعوباً عديدة دخلت الإسلام بدون حرب أو صدامات عسكرية، وأكبر دليل على ذالك ما حصل خلال العصور الإسلامية الوسطى في كل من بلاد شرق ووسط أفريقيا وبلاد الهند والسند، أيضاً كما هو حاصل في يومنا هذا في كل من أوربا وأمريكا وعدد من دول العالم الأخرى إذ نجد عدد المسلمين في هذه البلاد يتجاوز عشرات الملايين.

(٢) تدل المعلومات التي أوردها المؤرخون من اليونان والرومان على أن البلاد التي نعتوها بكلمة (أثيوبيا) تعني المساحة الشاسعة الممتدة جنوبي مصر من أفريقيا غرباً إلى آسيا شرقاً، وهي المنطقة التي تسكنها العناصر من ذوي البشرة المحترقة أو السوداء أو الزيتونية اللون، وهذا ما يعنيه اللفظ الإغريقي (Aethiops) ويتكون من مقطعين (Athi) بمعنى محترق (ops) بمعنى وجه. انظر الحفني الغنائي. «الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان» مخطوط ص ١٤.

وأولئك الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغة اليونانية استعملوا كلمة (كوش) وأرادوا بها أثيوبيا أي أنهم حددوا (أثيوبيا) أو شطرها الغربي بالمنطقة المعروفة باسم (كوش) والممتدة من جنوب مصر. وكلمة (أثيوبيا) عني بها المترجمون الحبشة وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذ، أي أنهم في القرن الرابع الميلادي، يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية، والمعروف أن أهل أكسوم يفضلون أن تدعى بلادهم (أثيوبيا) بدلاً من الحبشة، وأن يدعوا أنفسهم بالأثيوبيين لا الحبشيين، بل إنهم ليشعرون بالإهانة إذا مانعتوا بالأحباش، ولعل ذالك يرجع إلى أن (أثيوبيا) تعني الكوش والكوكوشيون قد أصبحوا سادة على أغلب بلاد شمال شرقي أفريقية، باستثناء مصر، وذالك بعد إخضاعهم للقبائل الزنجية، وهذا مجد قديم، كما أن (أثيوبيا) وردت في التوراة فالحرص على هذه التسمية فيه معنى التيمن، أما الأحباش فتعني الاختلاط. انظر الجاحظ «فخر السودان على البيضان» ص ٨١ ومابعدها : عبد المجيد عابدين «بين الحبشة والعرب» القاهرة، ١٩٦١م) ص ١٦٧ ـ ١٦٩، جـ١، ص١٥٥.

(٣) الحبشة ومنها الأحباش وهما اللفظان اللذان صار في اللغة الأجنبية (Abyssinia, Abyssinians) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هي (حبشت) السامية التي عبرت البحر الأحمر مهاجرة من جنوب بلاد العرب، واستقرت في أفريقية، وتشير بعض المراجع العربية إلى أن الحبش من نسل حبشي من كوش بن كنعان بن حام بن نوح، انظر ابن

عبد البـاقي، «الطراز المنقـوش بمحاسن الحبـوش» مخطوط، ورقـة ٤، جلال الـدين السيوطي. «أزهـار العروش في أخبار الحبـوش» مخطوط ومصور عن نسخة بـالاسكوريال، ميكـروفلم رقم (٢٧) تاريخ، دار الكتب بالقاهـرة، عبد الـرحمن بن الجـوزي. «تنـويـر الغبش في فضل السـودان والحبش» مخطـوط، مصور عـن نسخة بـالاسكـوريـال، ميكـروفلم، رقم (٢٩) تاريخ، دار الكتب بـالقاهـرة، الشاطـر بـوصيلي عبد الجليل. «معـالم تاريخ السـودان ووادي النيل» (القاهرة، ١٩٥٧م) ص ٧.

ويـرجح أن تلك الهجرة قـد تمت ما بين القـرنين العاشـر والسـابع قبل الميلاد، والغـالـب أن الموطن الأصلي لهـذه القبيلة هو بلاد اليمن. ولمـا كانت اليمن خلال تلك الفترة على درجة كبيرة من التقـدم والعمران، وفي ظل ملوك سبأ فإن هذه القبيلة لا شك كـانت أرفع حضارة ومدنية من المواطنين المقيمين في أفـريقية في ذالك الحين، وهم الذين استقـر الأحبـاش بينهم، ولم تلبث قبيلـة (حبشت) حتى سـادت في مـوطنهـا الجـديـد، وصبغت البـلاد بـالصبغـة الحضارية التي تميزت بها، غير أن المواطنين لم ينظـروا بعين الارتياح أو الرضا لسيادة هؤلاء الأجانب، ومع ذالك لم يكن القرن الرابع الميلادي يطلع حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التي استوطنوها.

انظر، عبد المعطي محمـد عبد المعطي سمسم. «العلاقات بين شبه الجـزيرة العربية والحبشة، منـذ القرن السـادس ق. م حتى نهايـة العهد الحبشي باليمن» رسـالة ماجستيـر، بجامعةأم القرى، مكـة المكرمة، ١٤١٠هـ ص ٢٢ وما بعدهـا؛ مصطفى محمـد مسعد «بعض مظـاهر العـلاقات بين الجـزيرة العـربية وأوطان البجـة بشرق السـودان قبل الإسلام» دراسـات تاريخ الجزيرة العـربية، الكتـاب الثاني (الـرياض، مطـابع جامعـة الملك سعـود، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ص ٣٩١ ـ ١٤٠٠؛ عبـد الحميد العبـادي «أحابيش قريش هل كـانوا عربـاً أو حبشـاً» مجلـة كلية الآداب الجامعة المصرية، مج ١، ج ١ (١٩٣٣م) ص ٩٥ ـ ١٠١.

(٤) انظر، محمـد بن حبيب. كتاب «المنمق في أخبـار قريش» تحقيق خورشيـد أحمد فاروق (بيـروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٣٢ : حول المنـازعات التي حصلت بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية، انظر تفصيـلاً أكثر في، أحمد إبراهيم الشريف. «مكة والمدينة في الجاهليـة وعهد الرسول» ط ٢ (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٥م) ص ١٢٨ وما بعدها.

(٥) ابن هشـام «السيرة النبـوية» تحقيق مصطفى السقـا وآخرين (مكـان النشر والتـاريخ بدون) جـ ١، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢، ابن حجـر العسقلاني «فتح البـاري» تحقيق محمـد فؤاد عبـد البـاقي ومحب الـدين الخطيب (مكان النشـر والتاريخ بدون) جـ ٧، ص ١٨٨.

(٦) شهـاب الدين أحمـد النويـري. «نهايـة الأرب في فنون الأدب» نسخـة مصورة عن طبعـة دار الكتب (القاهـرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م) جـ ١٦، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢، انظر أيضاً تفصيلات أكثـر، عبد الشافي غنيم عبـد القادر، «البحر الأحمر طـريق للدعوة الإسلاميـة»، البحر الأحمر في التـاريخ والسياسة الـدولية المعاصرة، أبحـاث الأسبوع العلمي الثالث، ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة، ١٩٨٠م) ص ٧٥ ـ ٧٨.

(٧) سورة آل عمـران آية : ٧٥، انظر تفسيـر الآية عند، الحـافظ عماد الـدين بن كثير. «تفسير القـرآن الكريم» ص ٢ (بيروت، دار الأندلس، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، جـ ٢، ص ٥٩.

(٨) حسن ابراهيم حسن. «تـاريخ الإسلام السياسي والديني والثقـافي والاجتماعي» ط ٨ (القاهرة، مكتبـة الأنجلو، ١٩٧٤م) جـ ١ ص ٨٧ ـ ٧٨.

(٩) انظر ابن هشام. «السيرة» جـ ١، ص ٣٢١ وما بعدها.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٣٣٤.

(١٢) المصدر نفسـه، جـ ١، ص ٣٣٠ ــ ٣٣١، انظر أيضـاً عبد الـرحمن بن عبدالله بن أحمـد السهيلي. «الروض الأنف في تفسير السيرة النبويـة» (القاهرة، مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعـة، تاريخ النشر بدون) جـ ٢، ص ٧٥ـ ٧٦.

(١٣) ابن هشام «السيرة» جـ ١، ص ٣٣٥ وما بعدها.

(١٤) المصدر نفسه، السهيلي «الروض الأنف» جـ ٢، ص ٩١ وما بعدها.

(١٥) ابن هشام «السيرة» جـ ١، ص ٣٣٦، السهيلي، «الروض الأنف» جـ ٢، ص ٩١ ـ ٩٢.

(١٦) انظر عبد الشافي غنيم «البحر الأحمر طريق للدعوة» ص ٧٨.

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) انظر محمـد حميد الله. «مجموعة الـوثائق السياسيـة للعهد النبـوي والخلافـة الراشـدة»، ط ٥ (بيروت : دار النفائس، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص ٩٩.

(١٩) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. «تاريخ الأمم والملوك»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت، دار سويدان، تاريخ النشر بدون) جـ ٢، ص ٦٥٢، صفي الرحمن المباركفوري. «الرحيق المختوم»، ط ٢ بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ص ٣٣٦ وما بعدها.

(٢٠) محمد حميد الله، الوثائق، ص ١٠٠ ــ ١٠٤.

(٢١) كانت رضي الله عنها مع من هاجر إلى الحبشة، وبصحبة زوجها عبد الله بن جحش الذي ارتد عن الإسلام إلى النصرانية، فبقيت أم حبيبة على دين الإسلام حتى تزوجها الرسول ﷺ وكانت سنة وفاتها في ٤٤هـ/ انظر ترجمة لها في كتاب ابن سعد، «الطبقات الكبرى» (بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) جـ٨، ص ٩٦ ــ ١٠٠.

(٢٢) محمد حميد الله «الوثائق»، ص ١٠٦ ويورد ابن سيد الناس أن النجاشي أصدق عن الرسول ﷺ إلى أم حبيبة تسع مئة دينار انظر «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل السير» تحقيق دار إحياء التراث العربي، ط ٣ (بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)) جـ ١، ص ١٤٩ (٢٣) محمد حميد الله، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

(٢٤) انظر كيف تأثر الرسول ﷺ عندما سمع بموت نجاشي الحبشة، ابن هشام «السيرة» جـ ١، ص ٣٤١، ابن حجر، «فتح الباري»، جـ٧، ص ١٨٨ ـ ١٩١.

(٢٥) القرصنة، قراصنة Piracy, Pirates.

سلاح شهرته الدول البحرية ضد سفن أعدائها، وقد استخدمته الدول الإسلامية وغير الإسلامية، فكانت هذه الدول تمنح رجال البحر تراخيص لمهاجمة سفن الأعداء وبذلك يضيفون قوة إلى أساطيل دولهم. غير أن في كثير من الحالات كانت الدول لا تستطيع السيطرة على هؤلاء الأفراد الذين يعملون لحسابهم الخاص، ويكوّنون عصابات بحرية أشبه بعصابات البر.

وكانت الغنيمة تدفعهم إلى عدم الالتزام بارتباطات حكوماتهم فيهاجمون سفن الأعداء والأصدقاء على حد سواء. انظر أحمد عزة عبد الكريم «دراسات في تاريخ العرب الحديث» (بيروت، ١٩٧٠) ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠.
Robert Johen. History of the French Colonial Policy (1871 - 1925) (London7, 1929).

(٢٦) محمد بن عمر الواقدي، كتاب «المغازي» تحقيق مارسدن جونس، ط ٣ (بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ص ٩٨٣ ـ ٩٨٤، ابن حجر العسقلاني «فتح الباري» جـ٨، ص ٥٨ ـ ٥٩، المباركفوري، الرحيق، ص ٤١٠.

(٢٧) أما أن النجاشي أعلن الإسلام فهذا أمر يكاد يكون محققاً، إذْ أجمعت عليه المراجع العربية تقريباً، أما أنه اعتنق الإسلام وترك النصرانية، فهذا ما لا يمكن التحقق منه إثباتاً أو نفياً، ويرى بعض المحدثين أن النجاشي أعلن هو وأساقفته لهدف سياسي بحت، لا بدافع العقيدة الدينية، فقد رأى انتصارات الإسلام داخل الجزيرة العربية، وخشي من امتداد الفتوح الإسلامية إلى بلاده، وهو في وضع قد لا يمكنه من الدفاع أو المقاومة، كما أنه لا يحب أن يدخل في حرب تتجلى عن قتل كثير من رعاياه، ومن ثم كانت دبلوماسية في إظهاره للإسلام وإرسال الهدايا وإنقاذ بلاده وحمايتها من التعرض للفتح الإسلامي، ويدعم صاحب هذا الرأي تفسيره بأن الحبشة من بين سائر بلاد الشرق الأوسط استطاعت أن تحتفظ بنصرانيتها بعد حكم أصحمة.

(٢٨) انظر محمد بن إسحاق الفاكهي. كتاب «المنتقى في أخبار أم القرى» نشرة وستنفلد جـ ٢، ص ٤٤، يوسف فضل حسن، «دراسات في تاريخ السودان»، جامعة الخرطوم، ١٩٧٥م) جـ١، ص ٣ J. Spencer Trimingham, Islam in Ethiopia, 3rd. ed. (London in 1976) p. 46.

ومن يتتبع العلاقات بين الحبشة والحجاز، يجد أن الإغارات من قبل قراصنة الأحباش تكررت خلال حكم الدولة الأموية والدولة العباسية، ولكن خلفاء الإسلام في تلك العصور كانوا دائماً على أهبة الاستعداد لرد ومحاربة تلك الغارات، انظر أمثلة من غارات الأحباش في تلك العصور، محمد بن ظهيرة القرشي، «الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف» (القاهرة، ١٣٥٧ / ١٩١٣٨م) ص ٨١، عبد القدوس الأنصاري «موسوعة تاريخ مدينة جدة»، ط ٣ (القاهرة، ١٤٠٢/ ١٩٨٢م) ص ٥٧، عبد الشافي غنيم «البحر الأحمر» ص ٨٠٢ وما بعدها.

(٢٩) انظر مقالة السر أحمد العراقي «الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال»، «ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية»، الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو/ تموز ١٩٨٣م (بغداد، ١٤٠٥/ ١٩٨٥م) ص ١٦٤ ــ ١٦٥، عبد الشافي غنيم «البحر الأحمر» ص ٨٠ ـ ٨٥.